فاجعة حب

Some rise by sin,
and some by virtue fall
SHAKESPEARE

شهدت فيما مضى حوادث كثيرة لست أذكر منها الآن إلا حادثة واحدة ليس إلى نسيانها من سبيل، فلا مرور الزمان وتقادم العهد ولا شواغل الفكر واضطرابات الحياة تمكنت او تتمكن من محوها من نفسي. مع ذلك فالواقعة بسيطة خالية من الشؤون الغريبة الباهرة التي تبدو في هذه الحياة شؤونا غير عادية. ولكن من يدري، فلعلها ليست بسيطة بهذا المقدار، أو لعل في بساطتها شيئا غير عادي جعلها ترسخ في نفسي، ويدفعني الآن الى روايتها وفي نفسي ألم وأسى لأنها انتهت بفقد صديق حميم لي على كيفية تجعل قلب كل إنسان رقيق الإحساس ينفطر حزنا.

كان صديقي سليم مولعا بدراسة الموسيقى. وكنت أنتظر ان يخرج ناظما موسيقيا مجيدا لما كنت عهدت فيه من شدة العواطف وسلامة الذوق وقوة الشعور وما كان هو عليه من سمو الإدراك وتعمق في الفهم. كانت نفسه كبيرة حتى كأنها تسع الكون. وكان يحب ان يرى شعبه آخذا قسطه من الموسيقى العالية ؛ أي انه كان يريد ان يرى في شعبه موسيقى سامية تستطيع ان تعبر حقا عما في القلب من شعور وما في العقل من تأملات أدبية وفلسفية. ولا أزال

أذكر حديثا له حين كان قلبه طافحا بالعواطف القوية ونفسه مترعة بالآمال الكبيرة، وهو حديث لا يكاد يمثل ما كان عليه سليم ولكنه يجعل الذين يسمعونه او يقرؤونه يشعرون ان ما كان يجول في فكر المحدث شيء سام لو أنه تحقق لانتشل حياة شعبه انتشالا تاما من الجمود والخمول اللذين لا يزالان يرافقانها. من أجل ذلك رأيت ان أثبته فيما يلي كما يحضرني وأظن انه لا يكاد يفوتني شيء منه.

كنا مرة مجتمعين في حلقة من الأصحاب فأخذنا نتحدث في كل علم وفن حتى تطرقنا أخيرا الى الموسيقى. وكان بيننا من شب ولم يسمع سوى الألحان الشرقية الشائعة عندنا التي يسمونها خطأ "الألحان العربية". وإذا كان قد سمع بعض الأنغام الغربية فهو لم يعبأ بها ولم يحاول فهمها. وكان آخرون ممن سمعوا الألحان الشرقية والأنغام الغربية ووقفوا على ما في هذين النوعين من الموسيقى من فن وافتتان. فقدم هؤلاء الأنغام الغربية على الألحان الشرقية لرقي تلك وغناها عن الحياة العاطفية ولفقر هذه من الوجهة ووقوفها عند حد التعبير عن الحالات الأولية. وتعصب أولئك - ولعل تعصبهم من باب الشعور القومي غير الناضج وغير الواضح، والتمسك بمبدأ المحافظة - للألحان الشرقية. وهذا شيء طبيعي، فالذين يفهمون لحنا موسيقيا واحدا فقط يفضلونه على كل لحن ونغم غيره.

وكان من وراء ذلك أن الجدل في هذا الموضوع احتدم بين الفريقين وطال أمره حتى خشيت أن يؤول الى تباغض وشحناء، كما جرت العادة عندنا نحن السوريون الى هذا اليوم، فإننا قليلا ما نتناقش في أمر بقصد التوسع في المعرفة والفهم، وتبين وجه الصواب ووجه الخطأ. إلا أننا لم نبلغ هذا الحد في هذه المرة، لأن الفريقين المتجادلين قررا أن يستفتيا سليما في الأمر بصفة كونه خبيرا في نوعي الموسيقى، الشرقي والغربي، ومحبا للإنصاف والحقيقة فسأل سليم أحد المتشبثين بأفضلية الموسيقى الشرقية المحافظة، واسمه بهيج، قائلا:

"أتدري، ياصاحبي، لماذا وجدت الموسيقى؟"
فأجاب بهيج بلهجة الموقن: "أجل وجدت الموسيقى لتكون لغة العواطف".
قال سليم: "لو كنت خبيرا بالموسيقى لما جزمت بهذا التحديد الذي يجرد الموسيقى من ثلثي مزاياها على الأقل".

فهتف أربعة دفعة واحدة: " ثلثي مزاياها؟! ".
سليم:" نعم، ثلثي مزاياها ".
بهيج: "إذا، كيف تحددها أنت ".
سليم: "إني أحددها بإطلاقها من كل تحديد، فإنك تستطيع أن تعرف الكثير من مزايا الموسيقى ولكنك لا تتمكن من حصرها. ليست الموسيقى لغة العواطف فحسب بل هي لغة الفكر والفهم أيضا. انها لغة النفس الإنسانية بكل ظواهرها وبواطنها. وإن شئت فقل ان الموسيقى تتناول العواطف الأولية والحالات النفسية على أنواعها والأصوات على اختلافها والشعر والأدب والفلسفة. ومن هذه الوجهة لا يمكنك ان تقسم الموسيقى الى قسمين، شرقي وغربي، وانما يمكنك ان تميز بين الأساليب الشرقية والأساليب الغربية في التعبير عن المعاني النفسية المقصودة من الموسيقى، وبين اصناف هذه المعاني عينها. فمتى كانت الموسيقى الغربية تعبر عن العواطف والحالات النفسية التي تعبر عنها الموسيقى الشرقية عينها أمكنك فهمها بكل سهولة وان اختلف اسلوبها. فيتضح لك مما تقدم ان وجه الفرق في ما تسمونه الموسيقى الشرقية او العربية والموسيقى الغربية ليس في أساس الموسيقى، فلا يوجد نزاع قط من هذا القبيل، بل في المعاني التي يقصد التعبير عنها عند الشرقيين وعند الغربيين وفي الأساليب المتخذة لبلوغ هذا الغرض. وان الفرق الذي تجده بين أساليب الموسيقى الشرقية ونظائرها الغربية ليس إلا مجرد تنوع يتبع حالات نفسية خاصة. ويمكنك ان تجد البرهان القاطع على صحة هذه النظرية في العلوم الطبيعية والنفسية وفروعها، فإن هذه العلوم تثبت بما لا يقبل الرد ان الطبيعة البشرية واحدة في جميع العناصر والشعوب وان تعددت الأمزجة. ان عواطف الحب والبغض والرقة والقسوة والسرور والحزن وبواعث الطرب والتأمل واللهو والتفكير والطموح والقناعة وما ينتج عنها جميعها من ثورات وانفعالات وتصورات نفسية تقتصر الكلمات عن وصفها، كل هذه واحدة في جميع الأمم في الشرق والغرب ولا فرق بينها الا بمقدار تنبه النفوس وارتقائها وشدة شعورها او خمولها وانحطاطها وعدم شعورها. فالقوم الذين لا تزال نفسيتهم في دورها الإبتدائي او كانت محجوزا عليها بحكم العادات والتقاليد العتيقة، الناتجة عن تلك النفسية، كانت موسيقاهم ابتدائية أيضا. وهي في هذه الحال لا تعبر إلا عن العواطف التي هي شيء مشترك بين الإنسان والحيوان كالشهوات الجنسية التي تمثل معظم عواطف هؤلاء القوم. وبعكس ذلك، فالقوم الذين تحررت نفسيتهم وارتقت فإن موسيقاهم تعبر عن عواطف تسمو على

الشهوات الجنسية وتخيلات تعلو عن الأغراض الحيوانية الدانية، اذ لم يعد مطلبهم في الدنيا مقتصرا على "وصال الحبيب"، بل اصبح مطلبا أعلى يرفع الحب نفوسهم اليه ويشحذ عزائمهم لتحقيقه مولدا في نفسهم من العواطف السامية والأفكار والتخيلات الكبيرة ما لا يستطيع فهمه من همـه وصال الحبيب وعلى الدنيا السلام. هذه هي العواطف والتصورات والأفكار التي تعبر عنها موسيقى بيتهوفن الذي بلغ في الفن الموسيقي حد الألوهيـة لأن معزوفاته استغرقت أسمى ما تصبو اليه النفس البشرية في الحياة. إنه كان يشعر بعواطف وآمال وأميال جميع إخوانه البشر حتى كأن نفسه كانت مؤلفة من كل النفوس. وهذه هي صفة النابغة كما هي صفة الشاعر والأديب النابغة. انظر الى ما تعبر عنه معزوفات هذا الموسيقي الخالد. خذ، مثلا، سنفونيته السابعة التي أجاب بها على مدافع السفاح نابوليون بتيار من الأنغام تحول الى تيار من العواطف البشرية الطالبة الحرية الثائرة على الظلم والاستبداد، لا يزال جاريا وسيظل جاريا أبد الدهر! انظر الى معزوفاته الأخرى كسنفونيته الخامسة المعبرة عن الصراع بين عوامل الفناء وعوامل البقاء - بين الموت والحياة وانتصار هذه بفتوتها على ذلك بهرمه - ومعزوفات غيره من الموسيقيين الخالدين، فهي لا تقف عند رفع العواطف الروحية فحسب الى مراتب السمو، بل تتعداه الى رفع الأفكار والتصورات العقلية ايضا. لا ياصاحبي، لم توجد الموسيقى لتكون لغة العواطف الأولية التي وقفت عند الموسيقى التقليدية الشائعة بيننا، بل لغة النفس بجميع ما فيها من عواطف وأفكار".

بينما كان سليم يتكلم كان الأصحاب جميعهم مصغين كل الإصغاء. فقد كانت هذه المرة الأولى التي يسمعون فيها حديثا من هذا النوع. وبعد صمت ظهر في أثنائه ان الرفقاء كانوا يجتهدون في فهم خطاب سليم ويحاولون إدراك المدى البعيد الذي بلغه، قال بهيج: " ما رأيك إذا في موسيقانا؟ ".

سليم: "الحقيقة ياصديقي، انه ليس لدينا موسيقى تعد نتاج نفسيتنا نحن السوريون من حيث أننا قوم لنا مزايا خاصة بنا. اما الألحان الشائعة بيننا فليست، باستثناء ألحان شعبية معينة، مما نشأ من نفسيتنا، بل هي مزيج من نفسيات أقوام مختلفة. واذا كان فيها ما يعبر عن جزء يسير من عواطفنا ومزاجنا فهي تقصر تقصيرا كبيرا عن استيعاب ما في أعماق نفوسنا من شعور يستغرق ما في الكون من عوامل ومؤثرات نفسية وما في صميم عقولنا من تصورات وتأملات تظهر فيها حقيقة طبائعنا ومواهبنا. إن الألحان التي

تسمعها كل يوم ليست خارجة من نفسيتنا بل هي مما دخل على تقاليدنا وعاداتنا. إنها ألحان تقليدية فحسب ".

بهيج : "إذا انت تفضل الموسيقى الغربية ".

سليم :" قلت انه لا تفضيل في الموسيقى. انما اذا كنت تريد معرفة رأيي في الفرق بين موقفنا من الموسيقى وموقف أهل الغرب منها فإني أصارحك ان شعوب الشرق - خلا الروسيين - إذا كانوا يحسبون شرقيين - قد عدلت عن الأسس الموسيقية الى الألحان الموضوعة، او هي قد اقتصرت في الموسيقى على طائفة من الألحان لا تجد عنها محيدا. وهذا كان شأن أهل الغرب أيضا، إلا انه لما ارتقت نفسيات البشر وعقلياتهم اضطرت الموسيقى الى مجاراة هذا الإرتقاء لكي تعطي المثل الصحيح للعواطف والأفكار الجديدة التي لم تعد الألحان الموضوعة تكفي للتعبير عنها. وقد سبق الغربيون أهل الشرق الى إدراك ذلك فأحدثوا في الموسيقى تطورا خطيرا. إذ أنهم عدلوا عن الألحان الى الأصوات المفردة التي هي أساس الموسيقى فرتبوها وأدخلوا على الموسيقى الأدب والفلسفة، فضلا عن الشعر. وهكذا استتب لهم إظهار مكنونات النفس الراقية بواسطتها. وهذا ما يجب ان يحدث في سوريا وفي كل قطر فيه شعب حي في نفسيته وعقليته.

إن التقاليد القديمة المستعارة قيدت نفوسنا بألحان محدودة ابتدائية قد أصبحت حائلا بيننا وبين الإرتقاء النفسي. ان في فطرتنا ونفوسنا شيئا أسمى مما تعبر عنه هذه الألحان الجامدة. شيئا أسمى من الشهوات او العواطف الأولية. إن في أنفسنا فكرا عاطفيا وفهما عاطفيا يتناولان التأملات العميقة في الحياة والرغبة الشديدة في تحسينها من وجوه متعددة: اجتماعي- قومي- روحي- انساني، ويدفعنا نحو مطلب أعلى أليق بوجودنا يحتاج تحقيقه الى أنواع من الموسيقى غير الألحان المستعارة الموضوعة لحالة او نفسية محدودة معينة، كحالة الحزن او حالة التدله في الغرام. فإن نغما وضع لحالة من هذا النوع لا يصح ان يستعمل في حالة أخرى تختلف عنها كل الإختلاف كحالة غضب النفس وثورتها على الإستبداد والظلم او حالة التأمل. بل إن لحنا وضع لحالة نفسية منذ نحو ألفي سنة لا يمكنه أن يعبر عن هذه الحالة بعد مرور زمن طويل اكتسبت فيه النفس المقصودة معاني جديدة تحتاج الى أنغام جديدة لوصفها. فإذا كنا نريد أن تحيا نفسيتنا حياة راقية تقربنا من أكناف السعادة وجب علينا أن نحررها من ربقة الألحان التقليدية التي لا تغذي إلا العواطف الدنيا. وان نعود الى الأصوات نفسها فنسلط عليها فكرنا العاطفي وفهمنا

العاطفي ونستخرج منها موسيقى تغذي كل عواطفنا وكل تصوراتنا وتظهر بواسطتها قوة نفسيتنا وجمالها".
لما أتم سليم عبارته التفت الى الرفقاء فوجدت بهيجا وأصحابه قد وقفوا عند أفكار جديدة لم يكونوا قد سمعوا مثلها من قبل. ثم ان أحدهم نظر الي وخاطبني قائلا: "ما رأيك يا سيد فيما يقوله سليم ؟".
قلت:" اني أوافق على جميع ما قاله وأتخذ من حكمه في الموسيقا حكما في الأدب. انظر الى شعرائنا كيف يحدون العيس في منظوماتهم. وما هم في ذلك إلا مقلدين لأن حدي العيس ليس من شؤون شعبهم ولا من مظاهر تمدنهم، والى كتابنا كيف يتكلمون عن الغبراء والبطحاء وبلادهم جبلية خضراء. إن التقليد قد أعمى بصائرهم عن الحقيقة، واني لاعتقد انه لا بد من القيام بجهود جبارة قبل ان تصبح النهضة الأدبية معبرة عن حياتنا القومية ولكني موقن بأنه سيجيئ اليوم الذي يتحقق فيه ذلك وتصير فيه النفسية والعقلية السوريتان الغنيتان بمواهبهما الطبيعية معينين ينهل منهما الأدباء وأهل الفن والعلماء والفلاسفة الذين يخرجون من صميم الشعب السوري".
وبعد صمت قصير انصرفنا، وقد رسخ حديث سليم في ذهني ولم تزده الأيام إلا رسوخا.

إن الحديث المتقدم يوضح روح التجدد التي ملأت حياة صديقي سليم وأرادت ان تتناول عصرا وأمة. والذي أعلمه ان سليما كان قد ابتدأ ينظم سنفونية في انتهاء عهد الخمول وبزوغ شمس يقظة الشعب السوري. والصدق يوجب علي ان أروي ان سليما كان يعتقد أن نهضة الشعب السوري ضرورية للتمدن لأنه كان موقنا من مزايا الحرية والسلام والمحبة المتأصلة في قومه وهو لم يكن يرمي من وراء ذلك الى غرض سياسي، بل الى ما هو أعظم شأنا وأكثر فائدة من الغرض السياسي. إنه كان يرى الفورة السياسية أمرا تافها إذا لم تكن مرتكزة على نفسية متينة يثبتها في قلب كل فرد. سواء أكان رجلا ام امرأة، شابا ام شابة. أدب حي وفن موسيقي يوحد العواطف ويجمعها حول مطلب أعلى حتى تصبح ولها إيمان اجتماعي واحد قائم على المحبة، المحبة التي اذا وجدت في نفوس شعب بكامله أوجدت في وسطه تعاونا خالصا وتعاطفا جميلا يملأ الحياة آمالا ونشاطا. حينئذ يصبح الجهاد السياسي شيئا قابل الإنتاج. واما الوطنية القائمة على تقاليد رجعية رثة فهي شيء عقيم ولو أدت الى الحرية السياسية.

هذه خلاصة نظرية سليم في تجديد حياة قومه وهي نظرية الرجل الفني الذي يريد أن يبتدئ في القلوب وفي الإفهام. ولست أشك أنه على صواب وأن نظريته قريبة جدا من نظرية الإجتماعيين الذين ينظرون في حياة الشعب الداخلية ولا يأبهون كثيرا للمجد السياسي أو يعدونه شيئا لا يتقدم على الحياة الحرة في العقل والنفس ويرون ان حرية النفس أساس كل الحريات. وهي من هذه الجهة لا تتضارب ونظرية السياسيين الشعوبيين. ولكن السياسيين كثيرا ما يقصرون عن فهمها. لا تتضارب النظرية المتقدمة ونظرية السياسيين الذين يعملون للحرية. ولكنها تختلف عن نظريتهم اختلافا كبيرا. ففي حين أنها لا تنكر أهمية الحرية السياسية لا ترى ان الحياة السياسية أساس الحياة القومية او أنها هي الوطنية الكاملة كما يدعي السياسيون.

أما وقد شرحت شيئا من خصـال سليم وأفكاره في الفن والحياة فيجب علي أن أذكر شيئا من أطواره الفريدة لأقرب شخصيته من مخيلة القارئ بقدر الإمكان. ولا شك عندي في أطواره نتيجة طبيعية لأخلاقه وعواطفه القوية وإحساسه الشديد. فهو إذا تأثر لشيء كان تأثره شديدا، عميقا، تاما لا يكاد يبدو منه شيء في الحال ولكنه لا يلبث أن يبدو أثره بعد مدة من الزمن. لذلك كان من الصعب تتبع حالاته النفسية وفهم عواطفه ومزاجه ولا أظن أن أحدا غيري تمكن من فهمه ومعرفة كنه أمره، لأني كنت الصديق الوحيد الذي لازمه وصحبه في أكثر روحاته وغدواته ووقف على الحوادث التي كانت تنطبع في ذهنه وهو هادئ ساكن كأنه لا يشعر بشيء مما يجري. وكان سليم يدرك أني واقف على حاله فكان إذا نظر الي تبسم تبسم الفاهم الخبير. ولكنه مع ذلك كله لم يكن يحدثني في حادثة واحدة قط ولا أنا حاولت استطلاع رأيه وسبر غور عواطفه. بل قليلا ما كنا نتبادل النظر في مجرى الحوادث، كأن الواحد منا لم يكن يريد أن يظهر للآخر شعورا يشابه شعوره!

مع ذلك ومع عظم المودة التي كانت بيننا كان سليم يخفي في نفسه حبا قويا لفتاة كنت لا أعرفها لذلك الحين، ولكن الحظ أتاح لي التعرف اليها فيما بعد فإذا بي أرى آنسة ذات نفس جمة اللطف وأخلاق وافرة. وكانت حين تعرفت اليها مكتئبة اكتئابا داخليا عميقا. فكانت كآبتها ستارا يحجب نفسيتها وأطوارها.

لم يطلعني سليم على أمر حبه ولكني كنت أشعر أن قوة خفية كانت تغذي عواطفه وتوحي اليه أنغامه الموسيقية. ومع كل التكلم الذي أحاط نفسه

به فإن الناس ما لبثوا ان شرعوا يتهامسون بشأنه. ولقد دخلت عليه ذات يوم في غرفته فوجدته طافحا جذلا وحبورا. فابتدرني بقوله:
"أظن أني قد قاربت أسعد أوقاتي وأعظمها شأنا في حياتي الخاصة وحياتي العملية العامة. تعال يا أ. اسمع هذا النغم الذي أوحاه الي شعوري. إنه عبارة عن قطعة صغيرة بسيطة".

وجلس الى البيانو وجعل يوقع قطعة لم تستغرق أكثر من عشر دقائق. فسمعت أنغاما لطيفة تضاهي أرق الأنغام التي سمعتها في حياتي ووجدت فيها شعورا جديدا لم أجد في غيرها من الأنغام ما يفوقه قوة وجمالا. فهنأت نفسي بهذا الصديق الذي جاء ليوجد لنا محلا رفيعا في عالم الموسيقى وأيقنت أن مجهوداته في هذا السبيل غير ذاهبة عبثا.
فلما انتهى التفت الي وقال:" كيف رأيت ؟".
قلت: "إني أهنئك من صميم قلبي فإنك قد أجدت النظم والنثر والشعر والأدب ".

وفيما نحن كذلك إذا بالباب يطرق ويدخل السيد ك، فسلم وقال:" جئت أدعو السيد سليما الى مائدة شاي ولكن ما دمت انت أيضا يا سيد أ. هنا فاسمح لي أن أدعوك الى مشاركتنا" فقبلت الدعوة وخرجنا معا.
ولما بلغنا منزل السيد ك. استقبلتنا ربته. فلاحظت أنها تهتم كثيرا لهذه الزيارة. بل بدا لي أنها تعلق عليها أهمية غير اعتيادية وأن لها من ورائها غاية. فرحبت بنا ترحيبا كثيرا وأظهرت سرورا" وابتهاجا زائدين.

لم يكن السيد ك. وزوجته سوريين بل أجنبيين. وكان لهما معارف في دائرة معينة من المجتمع السوري. والسيدة ك. تتكلم العربية بلهجة سورية وبدون تكلف إلا أن أغلاطها غير قليلة ولفظها غير صحيح. وكان عندها في البيت ساعة مجيئنا زائرتان هما الآنسة السورية أسما والسيدة الأجنبية و. وهذه الأخيرة كانت متزوجة رجلا سوريا ولم يكن قد مضى على وجودها في سوريا زمن طويل. فقامت السيدة ك. بتقديمنا الى هاتين الزائرتين ثم جلسنا وجعلنا نتحدث والحديث ذو شجون.

وكان من قسمتي أن استقل والآنسة أسما بحديث طويل تناول البحث في شؤون المرأة العصرية ومركزها في محيطنا. وأخذت السيدة ك. في مجادلة زوجها في بعض الشؤون جدالا حادا. وبقي سليم في مركز لا سبيل معه الى الاختيار. ولاحظت أنه مرتبك قليلا لأن السيدة و. كانت تطيل النظر اليه

وتنتظر أن يحدثها. وكانت إذا تحدث تميل اليه بكليتها وتظهر بصورة مخصوصة أنها تسمع كل نبرة من نبرات صوته.

أرى أنه لا غنى لي عن وصف هذه السيدة الأجنبية السيدة و. الرقيقة العود، اللدنة القوام، المعتدلة القامة والتي لها وجه صبيح وبشرة بيضاء ناعمة وحاجبان ظاهرة العناية في تزجيجهما حتى صارا كقوسين. ولها في قيامها وقعودها تأنق ودلال. ومع كل أوصاف هذه السيدة الجميلة لم يظهر لي أن سليما شغف بها ولكنه كان مضطرا اضطرارا الى مجالستها ومحادثتها.

ولقد علمت فيما بعد أن السيدة كانت غير سعيدة مع زوجها. فهو كان ممن لا تزال تقاليد التربية القديمة تجعل لتصرفه نوعا من الخشونة والفظاظة متستترا وراء حجاب التهذيب والرجولة الذي أكتسبه في أثناء وجوده في أوربا أفكاريختلف من هذا القبيل إختلافا كبيرا عن زوجته التي كانت قد ربيت في محيط أوربي أرتفعت فيه أساليب المودة وتكلف اللطافة إلى مستوى عال.

إذن كانت السيدة و. غير سعيدة وكانت تتوق إلى السعادة في هذا المحيط الجديد المتراوح بين ماهو عريق في التقاليد وما هو جديد في التمدن. ولكن هذه حقيقة لم أكن أدري بها في هذا الأجتماع. على أني كنت أشعر أن لهذه السيدة ميولا غريزية قوية تملك قيادها وتتسلط على إرادتها.

وبعد مدة قصيرة فرغت السيدة ك. من مناقشة زوجها والأصح انها لم تفرغ قط ولكن زوجها كان يريد الذهاب لبعض أغراضه، فاعتذر إلينا واستأذن وانصرف. وما كاد يخرج من الباب حتى تحولت السيدة ك. إلي وإلى الأنسة اسما ولم تلتفت إلى السيدة و. وسليم. بل أنها تجاهلت وجودهما بالمرة. فأيقظ عملها هذا فطنتي، ليس لأنه غريب فلا غرابة قط به، بل لأن سليما لم يكن من الرجال الذين يميلون إلى التحدث. وكنت أعرف إنه يحتقر الأحاديث الأغتصابية التي لا تدور حول موضوع معين ينتظر الفراغ منه، فهو لم يكن يتحدث لمجرد قتل الوقت بتجاذب الحديث.

وبينما فكري يتراوح بين هذه الظنون والأحاديث التي كانت دائرة بيني وبين الأنسة اسما، إذا بالسيدة ك. تدعوني وهذه الأنسة لمشاهدة مجموعة الملونات التي عنيت بجمعها وكنت مشغوفا بالصور الملونة حتى أني كنت أقف وقتا طويلا أمام الصورة الواحدة الهامة. مطيلا النظر إليها كأني أحاول طبع مافيها من دلائل الحياة وعظمة الفن في ذهني بحيث لا تعود تبرحه. فتبعت السيدتين إلى الغرفة المجاورة حيث كانت مجموعة الصور فوجدتها مؤلفة من نحو

عشرة أطر تتضمن كلها صورا لملونين عصريين بينها ثلاث صور أعجبتني كثيرا: الأولى رأس قروي، والثانية برية جبلية، والثالثة منظر وردة على نور شمعة.

لا ادري كم دقيقة استغرق وجودنا في الغرفة المجاورة ولكني ادري اننا عدنا لنرى سليما والسيدة و. فوجدناهما كما تركناهما. ورأت السيدة ك. أن تغير مجرى أجتماعنا فأدارت الغرامفون ولم يبقى على الرقص من محيد. لأن عدمه يعتبر إهانة لا سبيل إلى التفكير عنها عند السيدات المتأنقات. وأشارت إلي ربة البيت أن أدعو الأنسة اسما للرقص ففعلت. أما سليم فظل مكانه لا يتحرك. فحضته السيدة ك. على الرقص ولكنه أعتذر بأنه لا يحسنه فلم يلق أعتذاره القبول وتبرعت السيدة و. بأن تعلمه قليلا وكان سليم خجولا جدا فقبل، خوفا من أن يسئ التصرف. فجعلنا نرقص والتهت السيدة ك. بتدبير بعض الشؤون.

ولم ينته القرص الأول حتى وضعت السيدة ك. قرص أخر موسوما{{إني أحبك}} ولاحظت أثناء رقص هذا الدور أن السيدة و. جعلت ذراعها حول عنق سليم بدلا من أن تضع يدها على كتفه. وإنها كانت تضغط عنقه كلما صاح المغني {{ أني أحبك}}.

فلما انتهت هذه الرقصة رأيت سليما قد تبدل كثيرا. رأيته منفعلا أيما أنفعال وهو ما لبث أن التفت إلي وقال:

" هلم نذهب ياصديقي. فانهم ينتظروننا".

ولم ينتظر أن أجيبه بل إنه أسرع إلى السيدة ك. فشكرها وودعها ثم تحول إلى السيدة و. فودعها وودع الأنسة اسما وخرج تاركا السيدة و. مبهوتة جدا. وفعلت أنا مثل فعله وتبعته مهرولا وقطعنا الطريق كلها صامتين حتى بلغنا منزل سليم ودخلنا غرفته فذهب سليم لتوه إلى البيانو وشرع يوقع ألحان قطعته التي كان قد أسمعني إياها. ولكنه أكسبها هذه المرة قوة مؤثرة شديدة. وقد خيل إلي انه بدل فيها أو زاد عليها. فاقتربت من البيانو ونظرت في وجهه فوجدت عينيه محمرتين والدموع تجول فيهما.

كانت هذه المرة الأولى التي لاحظت فيها ظاهرة غريبة من هذا النوع لم أكن أعهدها في صديقي سليم من قبل. وانتهت القصيدة الموسيقية. ولكن يدي سليم ظلتا ضاغطتين على المواقع الأخيرة بينما كان هو يحدق في الأفق من النافذة. وكأني به سها عن وجودي في الغرفة. لشدة ما هو فيه. فرفع يده عن

مواقع البيانو وأخرج من جيبه محفظة فتحها وأخذ منها صورة وجعل يتأملها ويزيد التأمل كأنه يبحث فيها عن شيء جديد أو يتفقد شيئا قديما عزيزا. وبعد أن أطال النظر إليها أدناها إلى شفتيه وطبع عليها قبلة طويلة. ثم أخرج من جيبه منديلا مسح به الدموع التي أخذت تتدفق من عينيه تدفقا.

في هذه اللحظة انكشف لي سر الإنفعال الشديد الذي استولى عليه على أثر تطويق السيدة و. عنقه بذراعها البضة وضمها إياه إلى صدرها أثناء الرقص، وتأكد لي أن حبا خالصا قويا يفعم نفسه. ورأيت سليما في حاجة إلى الإختلاء وإن وجودي معه لا يخفف شيئا مما به. فانسللت من الغرفة وعدت إلى منزلي وقد عقدت النية على أن أزوره في الغد. فلما زرته في اليوم التالي وجدته يميل إلى الهدوء وان كان في مظاهره ما ينم عن بقية جزع.

مرت على اثر ذلك أيام عاد بعدها إلى سليم صفوه وعاوده جذله ونشاطه فعكف على عمله الموسيقي بارتياح نفسي جلي، وتفاءلت أنا خيرا الى ان كان ذات يوم زرته فيه فوجدته جالسا إلى البيانو على عادته. وأمامه أوراق السلم الموسيقي ينظم عليها أنغامه الجديدة، ويجربها ثم يمحو ويغير ويبدل حتى يستقيم له النغم الذي يريد. فجلست حذائه وأخذت في مطالعة كتاب أدبي كان بيدي وتابع هو عمله. وبينما نحن كذلك إذا بالباب قد طرق ودخلت خادمة البيت وفي يدها كتاب دفعته إلى سليم ففتحه وقرأ وفكر قليلا ثم دفعه إلي فتناولته وقرأت: بانتظارك كل يوم بعد الظهر في منزل السيدة ك٠٠ ولا أراك إلا ملبيا نداء الغرام. ولك مني الآن قبلة حارة اطبعها على توقيعي.

" و "

ولما فرغت من قراءة هذا الرقيم تبادلت وسليما نظرا طويلا ثم نهض سليم من مجلسه كمن تنبه لأمر خطير وذهب إلى طاولة صغيرة واقفة في زاوية من زوايا الغرفة، وكان يتخذها مكتبة له فجلس إليها وتناول ورقا وقلما وكتب رسالة إلى السيدة و. أطلعني عليها فأذا هي كما يلي:

" أيتها السيدة العزيزة

" لقد جمعتنا الصدفة في بيت السيدة ك. للمرة الأولى، وإنه ليؤسفني أن يكون ذاك الأجتماع قد أوجد في قلبك مثل العواطف القوية التي تتحدثين عنها يؤسفني ذلك جدا لأني أشعر بما تعانين في حياتك من الآلام الداخلية دون أن يكون في إمكاني تخفيف شيء منها، وإني لو حاولت ذلك لكنت كاذبا في ما أقول أو أفعل وقلبي لا يطاوعني على الكذب وضميري لا يرتاح إلى الخيانة. فإن حبا حقيقيا يملأ نفسي، ومتى وجدت الحب الحقيقي فلا سبيل إلى التبديل،

وكل محاولة من هذا القبيل تكون بلا شك محاولة فاسدة فاشلة. ولا أظنك ترضين الفشل لنفسك ولي. فتحملي آلامك بصبر فذلك فضيلة يندر مثلها ولا تدعي رجلا ينغمس في الإثم. ثقي بأنني أشعر بالألم الذي تشعرين، ولكن لتكن آلامنا عبرة لا نكبة وإذا كانت نكبة فمن الخير أن تبقى فينا ومن الشر أن تنتقل إلى غيرنا.

" أشكر لك مدحك إياي، ولكنك أخطأت في وضعي فوق أبناء قومي فما أنا إلا واحد منهم. وأرجو أن تحملي كلامي هذا على محمل الإخلاص. وإذا كانت العواطف التي في قلبك حقيقية فهي ولا شك تعينك على فهم ما أغلق على الأخرين والفهم يحولك عن طلب العزاء الخاص الذي قد يكون مصدرا للضرر إلى طلب العزاء العام. فكلنا يحتاج إلى العزاء. وتكرمي بقبول سلامي واحترامي " سليم"

وكان هذا الكتاب أخر العهد بالسيدة و.

ومرت بعد ذلك الأيام تباعا. ومضى سليم في توقيعه وتأليفه وكنت أجيء إليه كل يوم أطلع على تقدمه في عمله وأسمع ما يجربه من الأنغام الجديدة التي تمثل عواطف قلبه القوية وأفكار دماغه السامية، وأبدي له ما يحدثه توقيعه في من التأثير العميق ثم أعود وقد تولاني جذل لا مزيد عليه. وكان أني أنقطعت عن زيارته خمسة أيام متوالية كنت فيها مشغولا بالبحث عن العصر الذي عاش فيه الشاعر السوري الاكليركي القديم الذي ذكر تاريخ الأدب الألماني لمؤلفه الفرد بيزي[1] إن قصائده الألهية ترجمت إلى اللاتينية ومن هذه إلى الألمانية وغيرها وإنها سببت نهضة شعرية في كل أوربا. فلما زرته بعيدها لم أجده جالسا إلى البيانو كعادته بل ألفيته طريح الفراش في حال لا أخشى التصريح بأنها هالتني، فإن الأيام الخمسة الماضية كانت قد بدلته تبديلا غريبا. فاصفر وجهه ونحل، وذبلت عيناه وهزل جسمه ومال إلى السقم، ونمت نظراته إلى ألم نفسي عظيم. أثر بي منظره وهو على هذه الكيفية تأثيرا عميقا وشعرت عين شعور الملون الفني الذي يعرف قيمة التلوين حين يرى ملونة بديعة جديرة بالخلود قد تمزقت أو متحفا فنيا فخما قد التهمته النيران، أو شعور الإنسان الذي يشاهد مدينة ضخمة عظيمة قد طغى عليها بركان هائل وأخذها على حين غرة. ولكن في الناس أنانيين شديدي التمسك بأنانيتهم حتى أنهم لو شاهدوا تهدم مدينة عظيمة زاهرة أو تلاشي شعلة الشباب والحياة من

[1] A. Biesa: Deutsche Literaturgeschichte B.I.

جسد إنسان لما شعروا من غير مايشعرون حين ينظرون إلى شمعة تذوب إحتراقا أو إلى زهرة تذوي لإنقطاع الماء عن جذورها والطل عن أوراقها. وهل يشعر الأناني بشيء حين يرى ذوبان شمعة أو ذبول زهرة؟ أنى للأناني أن يفقه شيئا من هذه الرموز وهو منصرف بكليته إلا لذاته ومصالحه؟
وقفت عند السرير أتفقد حال صديقي بلهفة وجزع ولكن سليما أجابني على نظراتي بتبسم وضح لي فيها معنى السخرية من كل شؤون الحياة. وكان وسط ما هو فيه من عواطف وزعازع داخلية يتمسك برباطة جأش نادر المثال، فلم أتمالك عن الإعجاب به لهذه الخلة إعجابا فاق ماكنت أضمره له من الإعجاب بأخلاقه وفنه. ثم لم يلبث أن خاطبني قائلا:
" ما بالك واقفا والكرسي إلى جانبك؟ إجلس لنتحدث قليلا. أين كنت كل هذه المدة؟"

فجلست على الكرسي الذي أشار إليه وقلت:
"كنت أنقب عن العصر الذي عاش فيه تاتيان العظيم"
"تاتيان؟ ومن تاتيان هذا؟"
"يذكر المؤرخ الأدبي الألماني الفرد بيزي، إن تاتيان شاعر سوري اكليركي مجيد نظم قصائد روحية كان لها تأثير عظيم في تطور الشعر الأوربي عامة والشعر الألماني خاصة".
فزفر سليم ثم قال:
" هل توفقت في تنقيبك أو هل عثرت على شيء من قصائد هذا الشاعر؟" كلا. فالوقت لم يكن متسعا بهذا المقدار ولا يخفي عليك أن أثارنا الأدبية مبعثرة تبعثرا لا مثل له. وليس في البلاد معاهد أو مكاتب عامة أو خاصة تهتم بجمع شتات الآثار الأدبية السورية. والمؤسف أن يكون جل أدباءنا إن لم يكن كلهم جاهلين تاريخ أدبهم القومي جهلا فاضحا، حتى إنه إنه لا يكاد يوجد بينهم من يشعر بوجوب التوقف عن ثرثرته ولو فترة قصيرة لينظر في حياته الأدبية نظرا أعمق من النظر السطحي الذي تعود أن يلقيه على الأدب والحياة جميعا. إن معظمهما يسيرون في مقدمة الأدب التقليدي".
وما كدت أنتهي إلى هذا الحد حتى رأيت وجه سليم قد جف وتجهم دليلا على زيادة آلامه النفسية. فصمت وكنت راغبا كل الرغبة في معرفة السبب الذي ألقاه في الفراش لغير مرض ولكني أشفقت عليه وصبرت على مضض. وبعد هنيهة قال سليم:
" إن آلاما عظيمة، آلاما لم يسبق لها مثيل، تنتظر كل ذي نفس كبيرة فينا،

إذ ليس على الواحد منا أن ينكر ذاته فحسب بل عليه أن يسير وحيدا بلا أمل ولا عزاء، لأن حياتنا الاجتماعية والروحية فاسدة. فكيفما قلبت طرفك رأيت حولك نفوسا صغيرة متذمرة من الظلمة التي هي فيها ولكنها لا تجرؤ على الخروج إلى النور وجدت ألف يد أخرى قد إمتدت إليها لتبقيها في الظلمة. ليس لإبن النور صديق بين أبناء الظلمة، وبقدر ما يبذل لهم من المحبة، يبذلون له من البغض" وزفر صديقي زفرة حارة وتابع ذلك بلهجة ساخرة:" ولأهل الظلمة مقاييس للأخلاق والشرف والخصال! ولهم أيضا حدود للعواطف البشرية من تجاوزها كان معرضا للسخط والإنتقاد الشديدين. فإذا وجدت فيك عواطف تحملك على ترك المطالب الأنانية والأغراض الهزيلة وترفعك نحو مطلب أعلى يسمو على الشؤون الدنية فأنت معذب عذابا أليما بين أبناء هذا الجيل في هذا الوطن السيء الطالع".

قلت:

" إنك تتكلم الأن بمرارة نفس شديدة فهلا زدت ثقتك بي وأطلعتني على ما دهاك لعلي أجد رأيا فيه الخير؟"

ـــ" لا حد لثقتي بك. ولكني أشفق أن تتحمل فوق ما أنت متحمل".

ـــ" لا تشفق. فليس العلم بالسوء أعظم وطأة من الشعور به".

فنظر إلي نظرا طويلا ثم تناول من تحت وسادته كتابا دفعه إلي فقرأت:

" صديقي العزيز

" أخشى أن يكون الليل الذي لا صبح بعده قد أقبل فأني أكتب إليك هذا الكلمات القليلة لأسألك أن لا تأتي إلينا بعد اليوم وهذا خير لك ولي. ثق بأني قد فكرت مليا قبل أن أقبل على هذا السؤال وإذا كان لي في قلبك شيء من الإحترام فاحسبني صديقا ميتا. ولا تكتب ولا تجتهد في أن تراني وأعلم أن أحد هذين الأمرين يسبب لي آلاما شديدة.

" أستودعك الله وأياه أسأل أن يشجعك ويمدك بالصبر في حياتك.

" صديقتك"

أعدت قراءة الكتاب باعتناء زائد ثم رفعت رأسي وقد تجلت لي خطورته وخطره. فقال سليم:" ليس هذا كل شيء أيضا" وناولني كتابا آخر تاريخه بعد تاريخ الكتاب المتقدم وعبارته مايلي:

" حضرة السيد الأكرم

" بعد السلام أبدي إنه بالنظر إلى الصداقة التي تربطني وأمرأتي بعائلة الآنسة دعد قد كلفتني وإمرأتي بمخاطبتكم في قضية إبنتها تلك التي طال أمرها وتشعبت حتى لم يعد يحسن السكوت عنها. فإذا أحببتم فتفضلوا بزيارتنا في منزلنا الكائن في شارع م. لنتباحث وإياكم بهذا الشأن إتماما لرغبة السـيدة الفاضلة سلمى ودمتم.
" حاشية: إذا قبلتم الدعوة فأرجوا أن يكون حضوركم الساعة الثامنة مساء الجمعة أو السبت القادم."

" ج."

وما كدت أنتهي من تلاوة هذا الكتاب حتى أدركت أن صراعا شديدا يجري بين نفسيتين الواحدة تنظر إلى مثال أعلى تريد تحقيقه والأخرى تنظر إلى المادة ولا تهمهما مطالب النفس وقد استوقف نظري في هذا الكتاب عبارتان أولاهمـا قول المرسل "ـــ تلك القضية التي طال أمرها وتشعبت حتى لم يعد يحسن السكوت عنها" ففي هذه العبارة خشونة هي أقرب شيء إلى الوقاحة، ناهيك باستعمال لفظة" قضية" إستعمالا قزت منه نفسي وأحسست أن الرجل يتكلم كلام مـن يريد القيام بمساومة تجارية مادية. أما العبارة الثانية فهي قوله" ودمتم"!
أثار في هذا الكتاب عاصفة شديدة من الغضب وأخذت الخواطر تتوالى على مخيلتي. فأعدت الكتابين إلى سليم ونهضت من مجلسي وشرعت أتمشـى في الغرفة وأخاطب صديقي فقلت له:
" إني أفهم الكتاب الأول تمام الفهم فأن عبارته المقتضبة تدلني على أن صاحبته كتبته في ساعة إنفعال شديد. أما الكتاب الثاني ففيه ما ليس يشهـد لصاحبه بصفاء السريرة وأعترف أني لا أفهم السبب الذي حمله على تسمية الأمر" قضية". وقوله "حتى لم يعد يحسن السكوت عنها" يدل على وقاحـة وخروج عن التفويض الذي يزعمه لا أدري كيف أعلله".
" فتبسم سليم ببرودة وقال:
" أما أنا فلست أرى فيه شذوذا عظيما عن القاعدة المتبعة في هذا المحيط وهذا الزمان. أفلم تختبر كيف إن الناس هنا لا يتركون كبيرة ولا صغيرة ممـا لا يعنيهم إلا وتدخلوا فيها، فهم إذا اجتمعوا بأحد الناس لم يكفيهم أن يتعرفـوا إلى شخصيته بل اندفعوا يبحثون عن جميع شؤونه العامة والخاصة. وهـم لا يتوانون حتى يقفوا على كيفية معيشته بجميع دقائقها، كساعات أكله وشربه

ونومه واستيقاظه ومقدار أرباحه وخسائره وكل ما له علاقة بحياته الخاصـــة. ولست أدري كيف أكتسب قومنا هذه الصفة اليهودية الذميمة التي تجعل حياتهم منحطة إنحطاطا كبيرا يذهب باحترام النفس وسائر المزايا الشريفة التابعة له".
" وماذا أجبت السيدة ج ."
" لم أجبه بشيء فغدا الجمعة وقد عزمت على الذهاب اليه غدا في الموعـد المضروب".
" أعزمت حقيقة أن تذهب إليه؟"
" عزمت ولكن ليس من أجلي أنا نفسي" ونظرا إلي طويلا ثم تابع:" ولا أرى مانعا من ذهابك معي إذا أحببت"
فاطرقت هنيهة ثم قلت:
" لقد قبلت اقتراحك"
فمد يده إلي وقال" إذا سأكون بانتظارك"
فصافحته بحرارة ووعدته بالمجيء، ثم ودعته وأنطلقت وكلي أفكـــار وهواجس، لأني أشفقت عليه من مقابلة الغد التي تطير منها.

وفي اليوم التالي كنت عند سليم الساعة السابعة والنصف تماما. وفي الساعة الثامنة تماما نزلنا من العجلة أمام منزل السيدة ج.. في شارع م... فاستقبلنا الرجل في الباب وأدخلنا مسكنه الذي كان بسيطا جدا وقادنا إلى غرفة داخلية كانت إمرأته جالسة فيها فقدمني سليم إلى السيد ج. وإمرأته وجلسنا. وزاد سليم على تعريفه إياي قوله." إن السيد أ. صديقي الحميم وموضع سري" فكـأنه أراد بذلـك أن يطمئن صـاحب الـدعوة وإمرأته فـلا يمتنعا عن التحدث في الغرض من الإجتماع.
فلما أستقر بنا المقام أخذنا في حديث عـام في بعض الشؤون السياسيـة والإجتماعية. وظهر أثنـاء الحديث أن السيدة ج. يتسرع في الفهم وفي الجزم بالأمور التي يتسع فيها مجال الدرس والأستقصاء. ولا بأس بأن أصفه وصفـا موجزا فهو ليس من ذوي القامات الطويلة ولكنه يعلو عن متوسطيها قليـلا، أسمر البشرة، مستطيل الوجه، أنفه دقيق، متقلص الجانبين قليلا، تعلـوه نظارتان مشدودتان عليه ورأسه كبير ولكنه أكثر بروزا في القحف منه في الجبهة. وعلماء الحيوان يستدلون ببروز القحف على قوة المراكز الغريزية الحيوانية، فهو على عكس بروز الجبهة وسعتها الدالين على قوة مراكز الذكاء والفهم. أمـا علماء التشريح فيضربون صفحا عن كبر الرأس وشكله ويؤكدون

أن دليل مقدار الذكاء والفهم والقوى المدركة يجب أن يكون في تعاريج الدماغ وتلافيفه، ولكـن لما كان الوصول إلى معرفة مبلغ تعاريج الدماغ أمرا شاقا لأنه يقتضي عمليـة جراحية خطرة وجب علينا أن نكتفي بالبراهين التي يقدمها لنا علماء الحيـوان والأنسان في حكمنا على الأشخاص الذين نتعرف إليهم. وليس في نظر السيدة ج. إستقرار وإمعان يستدل منهما على تعمق ونضج ولا يوجد في وجهه تجعدات تنم عن إختبارات شاقة في الحياة وهموم تابعة لها أما زوجه فكانت أقصر منه قليـلا مخروطة الوجه، دقيقة الشبح، بسيطة الهندام، وليس في مظهرها شيء غير عادي. وإثنان يتكلمان بلهجة الخبير المحنك.

وتطرقنا في الحديث إلى ذكر بعض شؤوننا القومية. فاندفع السيد ج. في الكلام على "السوريين"! هذه الكلمة "كم نلوكها وكم نمضغها في كل مجتمع وكل حديث! آه كم نحن مغرمون بالكلام على قوميتنا السورية، فكل واحد منا يتكلم عن السوريين يصير فيلسوفا وكل واحد منا يحاول أن يرقى إلى الفلسفة بنقد السوريين وإظهار مواطن ضعفهم. وقليلون هم الذين يعرفـون قيمة الرصانة في هذا الموضوع، وأقل منهم الذين يدركون أن تحسين حياتهـم وتقويم أخلاقهم أفضل بكثير من نقد المجموع والإنحاء عليه باللائمة! ولعل القارىء تعب من كثرة ما سمع من الكلام في هذا الموضوع الدائم في حياته اليومية. ولكن لما كنت أريد أن أكون أمينا في روايتي لم أرى أبدا مـن تسجيل ما فاه السيد ج. بهذا الصدد قال:

"السوريون فاسدون. فهم لا يقدمون على أمر إلا ظهر فيه فسادهـم وعجزهم". ووضع لفافة التبغ في فيه وبعد أن دخن حاجته تابع "الدليل على فساد حياة السوريين أنهم خالون من الفنون الجميلة ولا يعرفون قيمة المبادىء. ولولا ذلك لما كانوا قصروا عن بلوغ المراتب التي بلغتها الأمم الأخرى. لقد قلت هذا الكلام في مواقف متعددة وجميع الذين سمعوني كانوا يقولون إن الحق معي" وعاد إلى تدخين لفافته وهو يبتسم إبتسام المسرور من نفسه لوقوعه على إكتشاف خطير وبريق عينه يدل على إرتياحه الشديد إلى ما يقول.

قلت:" لا أعتقد إن شعبنا على ما تذكرون من الفساد. أجل يوجد فينا عيوب تهذيبية كثيرة ولكن نهضة إصلاحية مخلصة تكفل إزالتها ".

قال ومن أين يأتي الإصلاح ؟ أين رجال الإخلاص؟ أين رجال الإخلاص؟ أين النوابغ؟ أين أهل العزيمة والإقدام؟ بل أين رجال التضحية؟ إن ما تقول رأي جميل ولكن الأمر عبث، عبث".

فأدركت الدرك الذي تحوم حوله أفكار الرجل ورأيت إن عدم الكلام خير وأبقى. فصمت وصبرت حتى بلغ السيد ج. منتهى إرتياحه.
وأخيرا إنتهى هذا الحديث التمهيدي الذي كنت قد أبتدأت أشعر بملل منه وجاء دور البحث في "القضية". فقال السيد ج. يخاطب سليما:
" بما أننا أصدقاء عائلة الأنسة دعد ويهمنا مصير هذه الفتاة وبما أن والدها المتغيب في أميركا يعتمد علينا فقد أحبت أمها السيدة سلمى أن تستعين بنا في قضية العلاقات التي بينكم وبين إبنتها وكلفتني أنا وزوجي بمخابرتكم في هذا الصدد. وهذا هو القصد من دعوتكم إلى هذا الإجتماع كما تعلمون. فأرجوكم أن تكونوا صريحين معنا في الحديث الذي يدور بيننا لكي نصل إلى حل نهائي لهذه المسألة. ولا تسهو عن أن السيدة سلمى تريد معرفة الحقيقة بكاملها لأن إبنتها عزيزة عليها جدا وهي حريصة جدا على مستقبلها وسعادتها".
فقلت في نفسي ان الرجل يتكلم بأسلوب وعناية. وقد بدا لي إنه يريد أن يظهر الآن بغير مظهره في كتابه حين ذكر"تلك القضية التي طال أمرها وتشعبت حتى لم يعد يحسن السكوت عنها".

أما سليم فأجابه:
"وحقيقة أي أمر تريد السيدة سلمى أن تعرف؟"
_" إنها تريد أن تعرف مركزكم بالتمام ومقدرتكم المادية"
_" إذا الأمر بسيط وقريب المتناول. فالسيدة سلمى تعلم وانتم أيضا تعلمون إني موسيقي وأشتغل في نظم الألحان وصوغ الأنغام، وعدا ذلك أعطي دروسا في الموسيقى وموردي الحالي يكفي لمعيشة عائلة بسيطة ولي أملاك في غير هذه المدينة وآمل أن ينجح عملي الموسيقي خيرا في المستقبل. ولا أظن السيدة سلمى تجهل الغاية من علاقاتي بابنتها فهي تعلم أمر حبنا ويمكنها أن تعلم الآن إني مستعد لعقد خطبتنا والتأهب للزواج".
فقالت السيدة ج :
" من يعرفكم في هذه المدينة؟"
فبادلني سليم النظر. ثم قال:
" لا يعرفني جيدا هنا سوى صديقي السيد أ. وعائلة صديقي السيد حسني وعائلتان أخريان فلست هنا بين أهلي".

وقلت أنا:" إن عائلة السيد سليم مشهورة بخدمة العلم والفن ولأفرادها ذكر في التاريخ وصديقي سليم يبذل من نفسه في سبيل فن جميل كبير الشأن في الهيئة الاجتماعية".

قالت تخاطب سليما:

" لقد سألت الكثيرين عنكم فكان الجواب واحد وهو أنهم لا يعرفونكم ولكنهم يعرفون أنكم غريبو الأطوار!"

فقال سليم:" أيجوز لي أن أسأل من هم الذين تفضلت بسؤالهم؟".

_" سألت عائلة السيد ر. وعائلة السيد ح. وعائلة السيد س. وعددا من الرجال الذين نعرفهم".

_ ومن هم السادة المذكورين؟"

_ السيد ر. تاجر معروف في البلد والسيد ح. ماسك دفاتر في محل كبير ومركزه حسن والسيد س. تاجر أخر".

سليم: "إني أجهل هذه العائلات تمام الجهل ومن البديهي أن لا تكون أهلا لإعطاء معلومات عني. ولا اكتمك أيتها السيدة إنه بلغني أن الناس هنا يتقولون كثيرا عني وعن غرابة أطواري فهم يرون في وجودي في هذه المدينة بعيدا عن أهلي حالة لا يمكنهم أن يعللوها إلا بالسوء. ولكن الإنسان الحكيم لا يأخذ بظنون الناس. والناس إذا ساءت فعالهم ساءت ظنونهم. أما أنا فلم أحفل ولن أحفل بهؤلاء الجماعة الذين يتحدثون عن غرابة أطواري لأني أعرف طباعهم وأعلم أن الناس في أكثر الأحيان أعداء لما جهلوا. وإني مرتاح إلى أن أطواري تخالف أطوار هؤلاء الجماعة والحياة التي أحياها تخالف الحياة التي تعودوها."

_" ولكن الناس يقولون إنه لم تكن بينكم وبين والديكم مراسلة في بداية الأمر وأن المراسلة بينكما قد ابتدأت منذ عهد قريب".

فنظر سليم إلي نظرة ذكرني حديثه السابق الذي ذكر لي فيه تدخل القوم هنا في شؤون الفرد الخصوصية. ثم التفت إلى السيدة ج. وقال:

" وما معنى ذلك؟" ورأيت أن صبره كاد ينفذ.

قالت:" يجب أن لا تغضبوا لأننا أحببنا الاستقصاء لمعرفة حقيقة أمركم فالذي دفعنا إلى ذلك حرصنا نحن أيضا على مستقبل دعد".

_" إذن، حضرتك تعتمدين على كلام الناس".

_" إننا لا نعرفكم كثيرا ولذلك نحن مضطرون إلى الاعتماد على ما نسمع

_" حتى ولو كان ما تسمعينه مما لا يوثق به؟"
ورأيت أن الحال صائرة إلى مالا تحمد عقباه، ولكن السيد ج. تدارك الأمر وقال:
" الذي أراه يا سيد سليم، إن مركزكم لا يضمن مستقبل الفتاة التي تريدونها زوجا لكم. ولما كانت السيدة سلمى تريد أن تضمن سعادة إبنتها الوحيدة فلا أعتقد أنها تسلم لكم بعقد الزواج. ولست أقول أن السيدة سلمى لا تفقه معنى العشق والغرام والهيام، إنها تعلم كل ذلك، ولكنها تريد الدليل على إن مركز من يتزوج إبنتها يكفي لإسعادها."
سليم:" ومن يضمن المستقبل؟ بل من يضمن أن السعادة مقرونة بالمركز؟"
فقالت السيدة:" أما أنا فأرى أن الفن ليس عملا ثابتا كالوظيفة أو أكيدا كالتجارة."
فقال سليم" أرى أن الحديث قد شط بنا عن الغاية ويحسن بنا أن نقف عند هذا الحد. وتكرموا بإبلاغ السيدة سلمى عن الحديث وهي تتخذ الموقف الذي تراه أفضل".
وعلى أثر هذا الكلام ودعنا الزوجين وانصرفنا. فلما صرنا خارج المنزل تنفس سليم الصعداء. أما أنا فأقبلت عليه ألومه على صراحته مع السيدة ج. وزوجه وأبديت له اعتقادي بأني لا أرى مبررا لكثرة الكلام الذي قالاه. فقال:
" لا تزد على ما بي فقد كفاني ما لاقيته من هذه المساومة التجارية. وإذا كنت قد لبيت دعوة السيدة ج. فالمسؤولية واقعة علي".
قلت:" أرى الأمور صائرة على شؤم".
_" إني بريء مما يفعل الناس. فهذان الزوجان يريدون أن يقيسا العواطف وشؤون الحياة الجديدة بمقاييس التقاليد القديمة. أو لم تسمع السيدة ج. يردد كلمات العشق والغرام والهيام لأنه لا يفقه شيئا من معاني الحب النفسي الذي يربط قلبين على طول الحياة من أجل ما هو أسمى من جميع ما يتصوره هو والذين في دائرته. إنه ينظر إلى الحب من وراء شهوات الجسد، لا من وراء عواطف النفس، ويفهمه بعقله الغريزي، لا بعقله الوجداني، انظر إليه وإلى زوجه كيف يحكمان علي، لأني بعيد عن والدي أو لأنهم بعيدين عني. إنهما يريان في شذوذا عن عادة الشباب المتربيين على التقاليد العتيقة الذين يعيشون في أحضان والديهم، يحصنون وراءهم. فلو عاش هذان الشخصان

الشريفان في سيرهما على التقاليد الرثة البالية في عصر الموسيقي الخالد شوبرت فماذا كانا يحكمان عليه ياترى؟"

_" وما هي حكاية هذا الموسيقي الذي تخفق لأنغامه العذبة ملايين القلوب؟"

فاستجمع صديقي فكره وقال:

" كان شوبرت إبن رئيس مدرسة فخرجه أبوه في العلوم الابتدائية والثانوية ثم أرسله إلى الجامعة للتخصص في أحد فروع العلم. ولكن شوبرت الصغير كان يميل إلى الموسيقى ميلا شديدا وكانت نفسه مملوءة عواطف قوية فلم يجد لنفسه مهربا من هذا الفن. فتابع في الجامعة دروسه العلية إكراما لأبيه وعكف في نفس الوقت على دروسه الموسيقية ثم عاد إلى أبيه الذي عينه أستاذا في المدرسة ولم يشأ أن يكترث لميول إبنه الموسيقية، فنشأ عن ذلك إن الدروس التي كان يلقيها الأستاذ شوبرت الصغير كانت تتحول من دروس في العلم إلى دروس في الفن وصار يلقن تلاميذه مبادئ الموسيقى بدلا من مبادئ العلوم. فاغتاظ أبوه من تصرفه هذا وطرده من مدرسته وبيته وخرج شوبرت الصغير إلى ساحة الحياة وحيدا، ليس له من معين إلا فنه. وكان لذلك العهد خامل الذكر، مجهولا بين أهل الفنون. وكان مضطرا إلى تحصيل قوته اليومي فأخذ في بادئ أمره يشتغل ضاربا على البيانو في بعض الحانات ومرة أيام مرة وصعوبات شاقة وذاق من العذاب ألوانا. ولكنه انتصر أخيرا بمنظوماته الموسيقية التي تحول القلوب الحجرية إلى قلوب من لحم ودم. وأصبح شوبرت الطريد شوبرت المحبوب الخالد. إن في حكاية شوبرت لعظة لقوم يعقلون. ولكن الناس الخاملين تعودوا أن يقيسوا غيرهم بمقياس خمولهم والنتيجة تكون دائما وأبدا غير ما يتوقعون".

لما بلغ سليم هذا الحد من الكلام كنا قد بلغنا ساحة المدينة الكبرى وهي محاطة" بالكباريهات " التي يرقص في كل منها عددا من الراقصات اللواتي اتخذن الخلاعة لا الرقص فنا. فقال لي سليم:" تعال معي" فتبعته ودخلنا أحد هذه الكباريهات. فإذا المكان مكتظ بالشباب المجتمعين حول موائد صفت عليها الأقداح والكؤوس، وجوه مفعم بالدخان المتصاعد من لفافات التبغ العديدة وهواءه فاسد سام. فقادني سليم إلى زاوية فيها مائدة غير مشغولة فجلسنا إليها وجعلنا نراقب ما يجري. وإذا بشاب قد وقف بين جماعة من رفقائه كانوا جالسين بالقرب منا، وهو يحمل بيده كأسا ملآنة خمرا وصاح برفقائه:" يا

رفاق! اشربوا ولا تحسبوا! فأنتم اليوم مدعوون لأن الحسناء "غاري" ستكون لي اليوم!"
وتأملت الشاب فوجدته مضرج الخدين وعيناه محمرتان من تأثير الخمر والدخان ولباسه يدل على أنه من الذين أحوالهم المادية حسنة. وكذلك كان رفقاؤه ثم رأيته يأخذ بذراع فتاة كانت جالسة إلى جانبه ويقودها إلى ساحة الرقص التي في وسط المكان ووجهه يطفح حبورا. فلما عاد من الرقص ملأ كأس الفتاة وكأسه وجلس يشرب ويسقيها. فقلت لسليم:" بؤس الشباب شابا كهذا "فأجابني:
" لا ياصديقي، لا تجدف! فأن هؤلاء من القوم المعروفين في المدينة. سل من تشاء يجيبك إنهم من أخيار الناس فلو كنت رفيقا لهؤلاء في مثل هذه الليالي وعشيرا لهم لكانوا هم وعائلاتهم يشهدون لي لنيل رضا السيدة ج. وزوجها! هلم نذهب فلست أطيق ضوضاء الجاز".
فرافقت سليما إلى منزله حيث ودعته وعدت إلى غرفتي فكتبت مذكراتي اليومية وجلست أفكر في ما صار إليه صديقي من الضنى والنحول وما يكابده من الألم النفسي، ثم اضطجعت في سريري ونمت بعد هواجس جمة. وكنت في اليوم التالي مدعوا لحضور حفلة في بعض الأندية الاجتماعية فزرت سليما أولا فألفيته أسوأ حالا مما كان بالأمس ولكنه كان هذه المرة جالسا إلى البيانو مكبا على عمله الموسيقي، فحادثته قليلا وتركته وذهبت لحضور الاجتماع.
وكان النادي حافلا بالعائلات وأكثر المجتمعين من الشباب والفتيات. وكانت هؤلاء مقرطات مسورات يرفلن بحللهن المتنوعة الأزياء. ولكن كان في وجوههن وعيونهن جمود غير طبيعي، جمود صيرهن شبيهات بالتماثيل الرخامية الباردة، الخالية من دلائل الحياة، وأكثرهن من اللائي ارتوت مفاصلهن وامتلأت أذرعهن وسوقهن واسترخت جسومهن وترهلت حتى انعدمت فيهن دلائل النشاط ورشاقة الحركة ولطافة الجلسة. أما الشبان" أبناء العائلات" فأكثرهم ممن نال حظا وافرا من السمن والبدانة وبطء الحركة وبلادة الفهم. وكانوا مقسمين إلى جماعات يتهامس أفرادها كثيرا وهم يحدجون الفتيات الفائرات العيون بأنظارهم المتقدة. وما لبثت أن تبينت بينهم ذلك الشاب الذي كان بالأمس يشرب نخب الراقصة الحسناء "غاري" في كبريه.. وهو في ثياب المساء، وألاحظه متجها نحو إحدى الفتيات اللواتي عليهن مسحة من

الجمال، وكانت هذه جالسة في حلقة من أترابها تشعر بنظراته وتتكلف التيه والدلال.

وما كدت افرغ من تبين وجوه الجماعة والاطلاع على أحوالهم حتى رأيت السيدة ج. وزوجه داخلين ورأيت أحد الشبان يسرع إلى ملاقاتهما. وكان هذا الشاب في العقد الثالث من العمر، بدينا، بطينا، متداخل الخلق لا تقل قامته عن قامة السيدة ج. طولا. ووقعت عين السيدة ج. علي فلم يبق لي من محيد عن السلام فأقبلت عليه وصافحته وامرأته. وعرفاني بالشاب الذي لاقاهما وهو يدعى السيد ميخائيل ثم جلسنا معا فأخذ الشاب في محادثتي فقال:

" لقد سبق لي أن سمعت باسمكم وإذا لم تخني الذاكرة كنتم قادمين من أميركا".

_" نعم".

_" ماذا كنتم تعملون في أميركا؟ ثم أردف" ليس من شأني أن أوجه إليكم مثل هذا السؤال ولكن اسمحوا لي بذلك فأني أسألكم كما أسأل صديقا لي". فقلت في نفسي" إن الرجل يوليني نعمة زائدة" وكدت أجيبه بما تستحقه الوقاحة الظاهرة في سؤاله ولكني كظمت غيظي مراعاة للموقف وأجبته:

_ كنت أبحث عن الألماس:

_ وهل وجدتم كثيرا منه؟

_ وماذا فعلتم به؟

_ أخزنه لحين الحاجة.

_ ولماذا لا تبيعونه؟

_ لأني أنتظر ارتفاع ثمنه.

_ أتعجب كثيرا من أمركم! فلماذا عدتم إلى هذه الديار؟

_ إن في ذلك لسرا!

_ لا بد أن يكون الأمر كذلك إذ لا أجد مسوغا لرجوعكم. وماذا تتعاطون هنا

_ أثقب اللؤلؤ وأجمع الفراش!

على أثر الجواب رأيت وجه هذا الرجل يحمر ثم يمتقع. وأخذ يجيل عينيه محملقا كالحائر وظهر إنه ابتدأ يدرك عبثي به. والظاهر إن السيدة ج. أدركت هي أيضا معنى أجوبتي فتدخلت في الحديث وخاطبتني:

ولكن الحقيقة يا سيد أ. إن المرء ليحتار في أمر وجودكم هنا فلقد سئلت وسألت أنا بدوري عن سبب ذلك ولكن الحقيقة ظلت مجهولة. فهلا صدقتني

وأطلعتني على ماحدا بك إلى ترك تلك الأمصار الغنية الواسعة والتخلي عن كل ما فيها من أسباب الراحة والسرور والعودة إلى هذه البلاد المسكينة؟

فوجدت في هذا السؤال سذاجة وبلادة يقف المرء أمامها حائرا مبهوتا. ولكني تذكرت أن المرأة التي تكلمني هي إحدى بنات قومي فكان ذلك كافيا لحملي على احترامها. فتغلبت على سأمي من هذا الحديث الذي يمس كرامة الإنسان في حريته الشخصية وحياته النفسية ومبادئه الفكرية وأجبت السيدة بصراحة:

إن هذه البلاد المسكينة هي بلادي وإن لي فيها مطلبا أعلى قد عدت لتحقيقه".

فصافحت السيدة ج. وزوجها والشاب ميخائيل بصوت واحد:" آه؟ مطلبا أعلى؟!" وبعد أن تبادلوا فيما بينهم نظرات تدل على استغراب قالت السيدة بلهجة فاترة:

"أمن أجل مطلب أعلى عدتم؟:

" نعم ياسيدتي من أجل مطلب أعلى".

وعاد الثلاثة إلى تبادل نظرات تنم على الاستخفاف فندمت على صراحتي وعقدت النية على أن أعود أدراجي في الحال. وزاد في مللي ذلك الجمود القسري الذي ألقى على الاجتماع ظلا من البلادة ثقيلا فاستنسحت الفرصة وتركت القوم في لهوهم الممل ورجعت من حيث أتيت. فلما أمسيت في غرفتي واستلقيت على سريري عادت الخواطر تزدحم في مخيلتي وفكرت مليا في أحاديثي مع سليم وفي الآمال الذي عقدناها معا على نشوء روح جديدة في الأمة تحدد حياتها وتقوي حيويتها وتنصرها على عوامل الخمول والجمود. وفيما أنا كذلك إذا بي أسمع ذلك الصوت النسائي الفاتر مقتربا متكررا.

"أمن أجل مطلب أعلى عدتم؟"

فصممت أذني لكيلا اسمع ولكن الكلمات ارتسمت أحرفا بارزة أمام عيني، فأطبقتهما. وبعد عراك داخلي عنيف استولى علي الوسن ولم أعد أعي شيئا.

وعندما استيقظت في صباح اليوم التالي شعرت بصداع شديد لما ساورني من الأحلام المقلقة أثناء هجوعي. ولكني ذكرت سليما فجزعت عليه ورغبت في أن أعرف حاله. فنهضت وتحممت بالماء البارد، على جاري عادتي، وروقت ضيقة النفس بكوب شاي وأسرعت بالذهاب إلى منزل صديقي. وكانت الساعة نحو الثامنة، فوجدته جالسا إلى طاولته الصغيرة

وأمامه وريقات يكتب عليها. ولاحظت أنه في هذه المدة أكثر سكونا وأشد نحولا من ذي قبل فحييته واقتربت منه ووضعت يدي على كتفه فلم تقع إلا على العظام. فوجف قلبي والتفت إلى البيانو فوجدت الأوراق كما كانت منذ يومين. فقلت:

" هل تكتب رسائل الآن؟"

_" لا".

_ ماذا تكتب إذا؟"

فقال:" لا أدري ماذا تسمي هذا النوع من الكتاب" وأشار إلى وريقتين أمامه. فتناولتهما فإذا عليهما شعر منثور هذا نصه:

" إذا انبثق الفجر وبزغت الغزالة
وفتحت عينيك للنور
ورأيت الأزهار تنشق عنها أكمامها
وتنشر في الفضاء عبق أريجها
إذ نركض ونقفز وفي قلوبنا اختلاج!"
فاذكري زمنا كان لنا ربيعه
" لقد مضى ذياك الربيع وهذا الربيع ليس لنا
فأزهاره غير أزهار ربيعنا
وفجره غير فجرنا
أما المرح والددن فشيء كان
لا. لا تذكري شيئا مما مضى!
لا تنبهي الأحــلام!"
" الحـب وهـم؟
هكــذا يقولــون
فإذا اضمحل الحب فماذا يبقى من الحقيقة؟
حب يذهب مع المساء وأخر يجيء مع الصباح،
فيجب أن لا يقام للحب عهد؟
هكــذا يقــولون الجاهلــين
لأنهم لا يعرفــون
إن:
في الحـــب الجديد
بقيـــة مـــرة

مــن حـــلاوة الحــب القديــم!
اللهـــم،
ألا إذا كان القلب حجــرا
والجســم طينـــا
فحينذاك لا فـــرق
بيـــن حـــب قديـــم
و حـــب جديـــد!"

هذا هو الحد الذي كان سليم قد بلغه قبل قدومي. ولعله كان يريـــد أن يسترسل في أنفاق عواطفه عن هذا الطريق بدلا من طريق الموسيقى. فقمت إلى البيانو وأخذت عنه ورقة السلالم الموسيقية التي كان سليم قد سجل عليها بعض مما أبتكره من الأنغام ليضيفها إلى الأوراق الأخرى المفروغ منها تتمة للقصيدة الموسيقية التي كان عاكفا على نظمها. وبعد أن تمنعت في الأنغام المسجلة عليها فقلت:

" إنك في شعرك كثير الرقة والشجو. ولكنك في موسيقاك أرق وأشجى. فإذا عدلت الآن عن نظم الموسيقى إلى إنشاء الشعر فمن ذا يقوم بإنجاز مـــا بدأتـــه؟ وماذا يكون شأن المطلب الأعلى الذي نظرنا إليه جميعا؟"

فزفر زفرة كـــادت تكون زحـــيرا وقال:

" إنما أردت من هذه الكلمات التي كتبتها أن أجعلها أساسا أدبيا لشجوية موسيقية أروم نظمها لتعبر عن العواطف التي تتضمنها."

قلت:" ولكني أراك نحيلا جدا وأعتقد إنك تحتاج إلى الراحة وإستبدال الإقليـــم

قال:" وماذا يفيد استبدال المكان والانقطاع عن العمل والمسألة ليست مسألة جسم ولا مسألة نفس؟ فالنفس تحيى باعتدال الإقليم ولا بتبديل الأجواء ولا بإراحة الجسد. إن النفس تحيى بالعواطف فإذا قتلت العواطف فكأنك قتلت النفس ذاتها ولا يقتصر ذلك على الأفراد بل يتناول الأمم أيضا فإذا عدمت الأمة الشعور الحي فكأنها عدمت وجودها. والشعب الذي يقتل شعوره بنيه يقتلهم قتلا. أنظر إلى هؤلاء الجماعة الذين يبحثون عن حياة الجسد ويهملون حياة النفس وقل لي ماذا ترى في حياتهم؟ أترى شيء غير الخمول يفضلونه على تحمل مشقة النهوض، وغير الجبن يحتمون وراءه لكي يجابهوا مطالب الحياة العليا وما يصحبها من جهاد يضني الجسد؟ هل لا تراهم يقتلون أنفسهم خوفا على أجسادهم؟ أو يعني الحب عندهم شيئا يعلو على حاجة الجسد؟

جردهم من كل كرامة أخلاقية ومن كل محبة نفسية ومن كل عاطفة سامية فذلك أهون عليهم من أن تهان أجسامهم. آه كم تؤلمني هذه الحقيقة".

فأعدت ورقة السلالم الموسيقية إلى مكانها ولزمت الصمت لأن عبارات صديقي كانت كأنها صدى أفكاري وشعوري. ورأيت إنه يحتاج إلى ما ينعش قوته فقلت "هل تأمر لي بكوب شاي؟" فقال:" بطيبة خاطر" وأرسل يأتي بذالك. فلما جاء الشاي جلسنا نشرب وشرعت أحدثه في أمور من شأنها أن تسري عنه. وبعد أن انتهينا ودعته وتركته ليعود إلى تأملاته التي تمليها عليه نفس شديدة الإحساس، عظيمة الشعور وعدت إلى منزلي كسيف الوجه جزعا.

وفيما أنا جالس في غرفتي أتأمل في حالة صديقي خطر لي أن أزور السيدة سلمى أم الفتاة دعد لأعرف موقفها من" القضية " فانتظرت إلى المساء ثم ذهبت إلى منزل سليم أولا ودخلت عليه فوجدته يبدل ثوبا بثوب ويستعد للخروج. فسألته إلى أين يقصد فقال" إلى بيت دعد لأن أمها تريد محادثتي" فقلت "ألا سبيل للذهاب معك؟" فقال "نعم. لا سبيل إلى ذلك".

_"إذا أستحلفك أن تطلعني على ماتقول الأم".

_"سأفعل" وخرج على الأثر.

وفي اليوم التالي قص علي سليم ما قالته الأم ومفاده إنها تريد سعادة أبنتها وإنها لهذا السبب، لا تقبل أن يكون زوج ابنتها موسيقيا ليس له منصب ثابت! وإنه إذا كان يريد أبنتها زوجا له فعليه أن يتخلى عن عمله الموسيقي ويجد لنفسه عملا يزيد أرباحه.

قلت "إن الأم تردد أقوال السيد ج. وزوجه" فقال: " لا بد أنهم تشاوروا وقرروا "إسعاد" دعد كما يفهمون معنى السعادة. ولابد أن يكون السيد ج. وزوجه قد أظهرا للسيدة سلمى سخافة عقولنا، نحن معشر النفسيين ذوي المطالب العليا، وأطلعاها على حكمتهما البالغة القائلة إن الحب مجرد عشق وغرام وإن العشق والغرام فورة عارضة تزول سريعا، إلى آخر ما لهما من آراء تدل على مبلغ ما يعرفانه من الأهواء الجسدية ومبلغ ما يجهلانه من العواطف النفسية.

وهذان هما الصديقين الوحيدان اللذين تعتمد عليهم أم دعد ثم أردف "ولكن يجب أن لا يلوم المرء السيدة سلمى فهي تجهل نفسيتي ولا تعرف إلا مايقوله لها صديقاها الوحيدان وهي فوق ذلك أم ومتى كان حولها قوم هم لحسبان الشر أولا وحسبان الخير أخيرا فقلبها لا يقوى على مقاومة سعايات الناس".

قلت :"و دعد"؟

فوجم وأطرق هنيهة ثم قال:

" أخشى أن أحملها فوق ما تحمل. ولا شك في أنها تتألم من جميع ما حدث لي ومن الكتاب الذي أرسلته طالبة إلي أن أعود إلى زيارتها وما أظن إنها أرسلته إلا مرضاة لأمها التي هي وحيدتها وإني لا يراودني أدنى شك في محبتها وإخلاصها لـــي. وقد مضت كل هذه المدة دون أن أحظى بلقياها حتى صرت أخشى أن تكون مريضة وأن تكون أرسلت إلى مدينة أخرى ظنا بأنها تسلو وتنسى. وهل تعلم أن شابا يدعى ميخائيل يصبو إلى طلب يدها وإن السيد ج. وزوجه يهرفان كثيرا به وبمركزه الحسن عند أمها؟"

فقلت "نعم أدري" ولم أشأ أن أخبره بخبر الشاب ميخائيل وعائلة السيد ج. في حفلة النادي لئلا أزيده ألما على ألم. فتحول عني إلى البيانو، ورأيت إنه يريد أن يخلوا بنفسه فودعته وخرجت مسرعا، وما كدت أبلغ الشارع حتى طرقت أذني أنغام موسيقية رقيقة خارجة من غرفته.

ومنذ ذلك اليوم صرت أجيء إليه كلما فرغت من عملي فأصرف عنده بضع دقائق أحادثه وأحاول تسليته. و لكني كنت كل مرة أتيه أجده أضنى جسما من المرة السابقة لأنه كان لا يطلب الطعام وإذا جيء به إليه تذوقه تذوق فقط.

كان يذوي كما تذوي الزهرة منع عنها الماء. فبذلت أقصى جهدي لمعرفة مقر الآنسة دعد لأني كنت على يقين من أن كتابا ترسله إليه يكفي لإحياء ميت وآماله وإنعاش قلبه ولكن محاولاتي ذهبت أدراج الرياح.

وحدث ذات يوم أني زرته فألفيته صريع حمى شديدة فأحضرت له نطس الأطباء الذين لم يألوا جهدا في معالجته ولكنهم لم يوفقوا في شفائه. و بينما هو في غيبوبة، إذ ورد كتاب مرسل إليه فأخذت الكتاب وقلبته بين يدي وتمعنت في خطه فعلمت أنه خط نسواني وتبين إنه آت من مدينة ب... و رأيت أن أفتحه لأعلم ما فيه لأني كنت الوحيد الباقي بقرب سليم والوحيد الذي يجوز لي إتيان مثل هذا الأمر ففتحت الكتاب وقرأت:

"عزيزي سليم"

"أكتب إليك الآن من هذه المدينة التي أرسلت إليها بقصد إبعادي عنك، لكني أسألك الصفح عن الإساءة العظيمة التي وجهتها إليك في كتابي الأخير. فقد بلغني ما تكابده الآن رغم أن أهلي والدائرة المحيطة بـي يحاولون جهدهم لمنعي من تنسم أخبارك ومعرفة ما هو جار لك. آه لو تدري كم عانيت من الآلام بسبب الكتاب الذي اضطررت إلى إرساله إليك وكم أعاني الآن من أجل ما أنت فيه.

علمت أنك زرت السيد ج. وأنا موقنة بأنك إنما فعلت ذلك من أجلي ومن أجل المطلب الأعلى الذي جمع قلبينا وحدهما في سبيل مبدأ يسمو على جميع ما يعتقدون وما يوقنون، ولكن تشجع! فأنهم لن يحولوا بين أعيننا والنور، فالنور لا تمنعه الظلمة إنهم يريدوننا أن نكون مجرد أجسام ــ مادة لا تطلب إلا مادة. أما نحن فنشعر أن لنا أنفسا ونحسن ما تصبو إليه نفسانا، فإذا اضمحل هذا الشيء الذي نشعر به فما هي السعادة التي تبقى لنا؟ إنهم لا يدرون أن تعب النفس لأعظم كثيرا من تعب الجسد لذلك يبحثون عن راحة جسدي أما راحة نفسي فلا يأبهون لها.

سليمي العزيز، أصفح عني لما أكون قد سببته لك من الآلام وثق بأني لم أقصد شيئا من ذلك، وإن كل قصدي كان أن أحاول دون حدوث ما قد حدث وأن أتحمل الآلام وحدي، لأني أعلم كم تحتاج إلى راحة البال في عملك الشاق. تشجع! فقريبا أكون قريبة منك أما الآن فلك سلام محبتك.

"دعد"

كنت أقرأ وأنا أشعر بأني أكاد أطير فرحا لورود هذا الكتاب الترياقي العبارة. ولكن لما فرغت منه وتحولت إلى السرير لإيصال البشرى إلى صديقي انقبضت نفسي أيما انقباض لأني وجدته قد زهق إلى التلف ولم يبقى منه ألا رمق ضعيف وذماء قصير. فطويت الكتاب ووضعته في جيبي. وبعد قليل قضى سليم وانتهى ذلك العراك الهائل الذي كان ثائرا في داخله بين مثاله الأعلى وأغراض الناس الأولية المنحطة، بين مرامي نفس كبيرة ومرامي نفوس صغيرة، بين المطلب الإنساني الأعلى والمطلب الحيواني الأدنى.

فلما أعلنت وفاته أقبل نفر من الأصحاب الذين عرفوه واتصلوا به في حياته، وكانوا قلائل، وبعض تلاميذه الذين كانوا، يدرسون الموسيقى عليه، في الوقت المعين لدفنه. وقبل أن نخرج به إلى الجبانة جاءت فتاة ترتدي ثوبا أسود بسيطا وذهبت توا إلى السرير ووقفت تنظر إلى جثمانه بعينين مغرورقتين. ثم مدت يدها وأمرتها على جبينه ووجهه وفاضت من عينيها دموع سخية. وكانت هذه الفتاة دعد وكان الحاضرون أثناء هذا المشهد واقفين صامتين كأن على رؤوسهم الطير.

أخيرا هدأت دعد روعها ومسحت عينيها بمنديلها وتحولت عن السرير وجعلت تجيل نظرها في الحضور حتى أستقر أخيرا علي فتقدمت إليها وخرجنا من الغرفة. فقالت." أصدقني كيف كانت أيامه الأخيرة وكيف مات؟"

" كانت أيامه الأخيرة أيام شؤم وعذاب أليم. إن الصدمة كانت عنيفة جدا لنفسه الرقيقة الشعور، فقد خيل إليه إن مطلبه الأعلى قد أضمحل وكان تأثـره عظيما جدا. وزاد في عذابه أن بعض الناس هنا أضرموا جحيما ماديا حول نفسه حتى ضاق ذرعا واستولت عليه من جراء ذلك حمى مطبقة قضت عليه".

" أو لم يرده كتابي؟"

" كان ورود الكتاب ساعة دخوله في طور النزع. وهذا هو "ودفعت الكتاب إليها فتناولته وهطلت من عينيها دموع غزيرة مسحتها بمنديلها ووضعت الكتاب في حقيبتها

وكان الجثمان قد وضع في التابوت فسرنا إلى الجبانة وأوريناه التراب وسط صمت تام ثم انفرط عقد الجماعة وتفرقوا. ولزمت أنا الآنسة دعد فقالت لي في الطريق: "هل يمكنني أن أعتمد عليك؟"

" بكل تأكيد".

" إذا أريد أن أذهب برفقتك إلى غرفة سليم، لأني أريد أن أقف على ما ترك من أثار موسيقية."

فقلت: "كما تريدين" وذهبنا معا إلى الغرفة وقدتها إلى البيانو. فوجدنا عليه أوراق سلالم موسيقية تتضمن شجوية صغيرة كاملة، وإلى جانبها ذلك الشعر المنثور الذي ذكرته فيما تقدم. فتناولت دعد المنظومة الموسيقية أولا وفحصتها وللحال أدركت رقة أنغامها وظهر عليها أثر انفعال نفسي شديد ولكنها تجلدت وتناولت الورقتين المكتوب عليهما الشعر فما قرأته إلى أخره حتى تأثرت تأثيرا لم تعد تقوى معه ركبتاها على الثبات وكادت تهوي على الأرض لولا أني أسرعت إلى إسنادها واقتيادها إلى المقعد بجانب البيانو فمددتها عليه وبادرت فأتيتها بكأس ماء بارد فسقيتها منها، ورششت الباقي على وجهها فساعدها ذلك على مقاومة الإغماء ولما عادت إليها قواها نهضت وعادت إلى الأوراق فجمعتها وفتحت درج الطاولة الصغير الذي كان سليم يحفظ منظوماته الموسيقية فيه، فأخذت دعد الأوراق التي كانت فيه وهي تشتمل على القسم الأول من منظومته الكبرى وجعلت الجميع رزمة واحدة وقالت:

"سآخذ هذه الأوراق جميعها".

قلت :"لك ما تريدين فليس من يطالب أو يعتني بها".

قالت: "أشكرك كثيرا. والآن أودعك وقد نلتقي فيما بعد "فمددت يدي فصافحتني بشدة الممتن وشيعتها إلى الباب فانطلقت مسرعة لا تلوي على شيء.
أما أنا فعدت إلى داخل المنزل وقلت لربة البيت إنه يمكنها أن تستولي على كل المقتنيات التي خلفها الراحل لأنه ليس له وارث. ثم ألقيت نظرة أخيرة على الغرفة التي كان يشغلها صديقي والبيانو الذي كان يضرب عليه أنغامه وانصرفت من ذلك المكان ولم أعد إليه منذ ذلك اليوم.
رجعت. بطريقة آلية، توا إلى غرفتي وانطرحت على سريري معيى وأخذت أفكر في أيام صديقي الأخيرة والنهاية التي صار إليها فذكرت حديثه لي عن الموسيقى وشأنها في حياة الأمم والبشرية جمعاء، وحكاية شوبرت. واستعدت في ذهني جميع تصرفاته السابقة واللاحقة. منذ أول يوم عرفته إلى أخر يـوم فشعرت أني خسرت صديقا يندر مثله. وإن الأمة فقدت رجلا تمثلت روحها في روحه، وجمعت عواطفه أدق وأجمل عواطفها. وهو لو عاش لأتم فعل ما لم يفعله شخص أخر من أبناء هذه الأمة إلا وهو أحياء نفسها.
وأنتقل بي الفكر إلى دعد، تلك الفتاة الجميلة النفس الكبيرة ما نقلت في نفسي: أترى يفقه السيد ج. وزوجه شيئا مما في نفسها العميقة؟

لقد مرت على وفاة صديقي سليم عدت سنوات وقد قضيت هذه المدة مغتربا في أوروبا وأميركا. وأول عمل قمت به بعيد عودتي أني نزلت مساء اليوم الأول لوصولي إلى العاصمة. إلى ساحة المدينة المركزية وأخذت أتنقل بين كبرياتهـا لأرى هل طرأ تغيرا على حياة القوم. فوجدتهم كأني لم أفارقهم إلا ليلة أمس، ولكني رأيت هذه المرة وجوها جديدة لم أكن قد رأيتها من قبل.
دخلت إحدى هذه الكبريات عند الساعة الحادية عشرة واتخذت لنفسي مجلسا منفردا أستطيع أن أرى منه كل مكان وأراقب جميع مايجري. وبينما أنا مهتم بمراقبة تحركات بعض الشبان في إحدى الزوايا إذا برهط من الرجال تقدموا إلى المكان الذي كنت فيه وأخذوا مائدة محاذية لمائدتي فتفرست في أوجههم من حيث لا يشعرون. وكدت لعجبي لا أصدق ما أرى حين تبين بينهم وجه ميخائيل صديق عائلة السيد ج. فوجدت قد تغيرت سحنته قليلا وأزداد سمنا وكان من حسن حظي أن ميخائيل جلس منحرفا قليلا وصار من الصعب أن يلتفت نحوي ويرى وجهي فأخذت أدرسه من حيث لا يدري.

وكانت تدفعني رغبتي الشديدة إلى درس حالات الأشخاص النفسية وتطوراتهم العقلية وفي معرفة ما طرا على هذا الرجل من التغيرات الأخلاقية بعد غيابي عنه كل هذه المدة الطويلــة.

دار حديث ميخائيل وزمرته حول الراقصات وجمال كل واحدة منهن وصفاتها وتاريخ حياتها فعدوا لا يقل عن عشرين راقصة في مدة لا تتجاوز خمس عشر دقيقــة!

فلما بلغوا الحادية والعشرين قال أحدهم لميخائيل:

" إنك كنت سعيد الجد يا ميخائيل، فلم ينل تلك الفتاة أحد سواك. وهي والحق يقال، كانت من أجمل الراقصات اللواتي أممن بلادنا. قل لي كم من الزمن صرفت معهـا؟"

فقال ميخائيل، وهو يتيه عجبا بنفسه ويلقي الكلام كمن يلقي على من حوله دروسا ثمينة دون أن يكترث لهـا:

"ثلاث سنوات بكاملها. ولو أني قدرت أن أحتفظ بها أكثر لفعلت. إن برتا الفتاة الوحيدة التي أحببتها حقيقة. أو تدري يا حسني إن برتا كلفتني خمسمائة ليرة عثمانية ذهبا؟"

فقال ثالث "ماذا أسمع؟ قل يا بيك يا ميخائيل، من أين جاءك الوحي الآن لتتكلم عن الحب؟"

فأجاب "الصحيح إني عشقت برتا حتى أني قاومت بنفوذي دائرة التحري بأمها وأبيها، من أجلها" قال ذلك بلهجة ملؤها الخيلاء والإعجاب بالنفس وأردف " أنتم لا تدرون، يا أصحاب إن برتا لم تكن ككثيرات من هؤلاء الراقصات. إنها لم تكن قد أحبت أحدا قط، وأنا أول رجل أحبته" ودق على صدره توكيدا لما يقول "إنها أحبتني كثيرا ولا تزال تحبني، فقد كتبت إلي مؤخرا تقول إنها لو تمكنت من جمع أجرة السفر لما تأخرت عن المجيء إلي وقد شكت ما هي عليه بلادها من الفاقة وقلة العمل. ومما يدلني على حبها الشديد لي إنها أرسلت إلي في عيد ميلادي رزين من الذهب مرصعين بحجرين كريمين. فكم تكون اشتغلت وقترت على نفسها في مثل هذه الأحوال لتقدم لي هذا التذكار؟"

فقهقه رابع وقال: "طبعا إن خمسمائة ليرة عثمانية ذهب تستحق حبا شديدا في مثل هذه الأيام ولا غرو أن تكون برتا مشتاقة جدا إلى العودة إليك!"

وقال خامس، وكان كل هذه المدة صامتا هادئا "إذا كنت عشقت برتا وكان الأمر كما تقول فلماذا لم تتزوجها؟"

فأجاب ميخائيل بحدة:" أتزوجها؟ ها. ها. اسمعوا ولماذا أتزوجها؟"

"لأنك كنت أول من استولى على قلبها. وأنت تعرف بذلك والإنسان الشهم لا يستولي على قلب امرأة ليقذف بها إلى الحمئة".

" قد كنت أحسبك فتى عاقلا، يا فريد، فما بالك بهذا الهذيان، أتريد مني وأنا أبن عائلة معروفة في المدينة أن أتزوج برتا الراقصة؟ نعم إني أعترف بجريمتي فقد أجرمت وانتهى الأمر ولكن من كان مثلي أبن عائلة لا يتزوج مثلها. ولا تنس أن لي أخوات في البيت".

"أعتقد أن وجود أخواتك سبب قوي يكفي لحملك على الزواج برتا. وما يدريك أن هذه الفتاة ليست ابنة عائلة أناخ عليها الدهر؟"

فحملق ميخائيل بعينيه وأدار رأسه يمينا وشمالا ثم أستجمع ما له من حدة ذهن وأجاب:

"أنت لا تعرف مركزي جيدا فأنا أنما أشتغل لحسابي الخاص بأسم عائلتي. فلو تزوجت برتا لنقم علي أهلي وخسرت تأييدهم المعنوي وخسارة هذا التأييد تعني خسارة ثقة مالية بي توازي ثلاثة آلاف عثمانية ذهبيا، وفوق ذلك أعلم أن الحب غشاوة رقيقة لا تلبث أن تتخرق وتتبدد فخير لي أن أتزوج ابنة عائلة معروفة هنا".

فرأيت الشاب المدعو فريدا يهم بالإجابة على خطاب ميخائيل ولكن ضجة عظيمة علت في هذه اللحظة في الزاوية التي كنت أراقبها أولا واستلفتت أنظار الحضور ومن جملتهم ميخائيل ورفاقه. فلما وجدت الحديث قد أنقطع ولم تبق لي حاجة إلى الزيادة، دفعت ثمن مشروبي وخرجت، وأنا أفكر في ابن العائلة هذا وفي أبناء العائلات الذين على شاكلته.

أما دعد فقد التقيت بها بعد أيام فإذا هي لا تزال كما عرفتها أولا: تسير في الشارع غير ملتفتة إلى أحد ولا ملوية على شيء. تقوم بعملها بكل بدقة وترتيب إلا إنها تتجنب الاجتماعات وإذا أتفق أن حضرت بعضها فأنها تحضرها بوجه جاف وهيئة جدية فلم يراها أحد قط ابتسمت في اجتماع، والناس يقولون إنه لولا عبوسها وجفاف وجهها لكانت فازت بعريسها!

وأما السيد ج. وزوجه فقط علمت إنهما حنقا حنقا عظيما على دعد لأنهما لم يكونا يتوقعان منها هذه الأطوار الغريبة التي خالفت نظريتهما في الحياة وخيبت آمالهما والجهود الكبيرة التي بذلاها لحملها على قبول ميخائيل،

التاجر المعروف، بعلا لها ولأنها أنكرت جميلها لاجتهادهما في إنقاذها من حب شاب موسيقي مات سريعا على أثر إصابته بحمى مطبقة!